البرنامج السردي في رواية الهؤلاء
دراسة سيميائية

أ.م.د.يوسف محمد جابر اسكندر
كلية الآداب – جامعة بغداد

1- مدخل

تعدّ رواية الهؤلاء[1] لمجيد طوبيا واحدة من الروايات المعبرة تعبيرا رمزيا عن طبيعة الدولة في بلدان العالم العربي، وإغراقا في الترميز، فضلا عن تعميم النموذج المعبر عنه، اقترحت الرواية مقلوب اسم الكاتب (ديجم) ليعبر عن رأس الدولة وزعيمها، ومقلوب اسم أبي الكاتب (أيبوط) ليعبر عن اسم الدولة المعنية. ويمكن اعتبار هذه الرواية نوعا من أدب المفارقة الساخرة أو الكوميديا السياسية السوداء، وبقيت منيعة عن تحليل يكشف عن الطبيعة التي تنتظم فيها الأحداث في برنامج سردي محدد، ينوي بحثنا، هنا، الكشف عن هدف محدد تماما؛ ألا وهو البرنامج السردي في هذه الرواية، مستفيدين من السيمياء السردية التي قدمتها مدرسة باريس السيميائية. وسينصبّ اهتمام البحث بتحليل المستوى السردي من بين المستويات الثلاثة في الحليل السيميائي، تاركين تحليل المستوى الخطابي والمستوى الدلالي العميق لمناسبة أخرى.

2- المفاتيح الاصطلاحية

التحليل العاملي، الخطاطة العاملية السردية، الخطاطة العاملية ما وراء السردية، البرنامج السردي الاستعمالي، البرنامج السردي الرئيس، الخطاطة السردية القانونية، الاختبار التأهيلي، الاختبار الحاسم، الاختبار التمجيدي.

3- طبيعة المستوى السردي في التحليل السيميائي

يقع المستوى السردي في التحليل السسيميائي لمدرسة باريس بين مستويين آخرين؛ اولهما المستوى الخطابي discursive، والآخر المستوى الدلالي العميق، وهو مستوى أكثر تجريداً من الاول وأكثر تجسيدا من الثاني، ويمكن الوصول له بطريقتين اثنتين هما الطريقة الاستقرائية ننزل بها من المستوى الخطابي إلى السردي ثمّ الدلالي وتسمى المسار التحليلي، والطريقة الاستنتاجية نصعد بها من المستوى الدلالي إلى المستوى السردي فالمستوى السطحي وتسمى المسار التوليدي، والطريقة الأولى هي الطريقة

الواقعية في التحليل الإجرائي على ان الثانية هي طريقة الاستدلال على ترابط المستويات في النظر المنهجي[2]. وكيفما كان الأمر فكيف ندرس هذا المستوى وهو متوسط بين مستويين؟ وهل يمكن سلخه من سواه لنحلّل به رواية ما؟

وللإجابة عن هذا السؤال المنهاجي، علينا أن نبيّن أن هذه المستويات في الطرح التحليلي هي مستويات تجريدية تماماً ولا تمثل الواقع النصّي، ونحن نحتكم للنصّ في إبراز قدرتها المنهجية في كشف طبيعة تركيبه، ودلالة وجوده، فتكون هذه المستويات التجريدية في الطرح التحليلي، وجوهاً ممكنةً للتحليل من أي نقطة انطلاق يرغب فيها المحلّل، لذا نقترح المسار الثالث بوصفه تركيباً من المسارين الآخرين التحليلي والتوليدي، في نقطة التقاء وسطى ممثّلة بالمستوى السردي، ليعود التحليل ثانية إلى السطح كاشفاً المستوى الخطابي الذي تتجلى من خلاله البرامج السردية والمقولات العاملية على شكل أدوار ثيماتيكية ومسارات تصويرية، ويعود عودة أخرى إلى العمق كاشفاً المستوى الدلالي المنطقي ممثّلاً بالمربع السيميائي، والتحليل الانفعالي الخاص بالنص، وقد أكد غريماس نفسه هذا الفهم بقوله: "بإمكان البنى السردية أن تظهر في مواقع أخرى خارج نطاق التجليات الدلالية التي تتم في اللغات الطبيعية: في اللغة السينمائية والخيالية وفي الرسم التشكيلي الخ .. ويؤدي هذا الأمر إلى الاعتراف بضرورة التمييز الواضح بين مستويين للتمثيل والتحليل والقبول بهما: المستوى الظاهر للسرد حيث تخضع تجلياته المختلفة للضرورات الخاصة بالمواد اللسانية التي يظهر من خلالها، والمستوى الكامن الذي يشكل نوعاً من الأساس البنائي المشترك يجد فيه السرد نفسه منظماً قبل تجليه. إنه مستوى سيميائي مشترك إذن ومختلف عن المستوى اللساني وسابق له منطقياً مهما كانت اللغة المختارة للتجلي"[3].

4- المقولات العاملية

من المنتج أن نبدأ تحليلنا للمستوى السردي، بحثاً عن البرنامج السردي في روايةٍ، بتحليل المقولات العاملية في هذه الرواية، ذلك أن التحليل العامليَّ هو القاعدة الرئيسة التي ينكشف على وفقها البرنامج السردي، من جهة أولى، وهو الرابط بين المستوى السردي والمستوى الخطابي، من جهة ثانية. فكل عامل actant يجب أن يجسّده ممثّل actor، وهذا الممثّل اما أن يكون فرداً أو أكثر، أو أن يشترك أكثر من عامل بممثّل واحد[4]، فإذا كانت العوامل كلها ممثّلة بممثّل واحد فنحن أمام مسار أصغري تكون فيه بنية الممثّل

ذات طابع تملُّكي وإذا كان العكس فنحن أمام مسار أكبري تكون فيه بنية الممثّل ذات طابع كينوني، "ونجد بين هاتين الحالتين المتطرفتين توزيعات ممثّلين ذات نزعة للتملُّك أو الكون وهي تمثل، دون شكّ، معظم الحالات"[5]. أقول إن انتماء الممثّلين إلى المستوى الخطابي في التحليل السيميائي وانطباقهم على العوامل وهي مقولات مجرَّدة في المستوى السردي يشكّل موضع تدرّج في التحليل من المستوى الخطابي إلى المستوى السردي.

وقد شاع في كتابات النقّاد والباحثين العرب، ولا سيّما المغاربة منهم جمعُ المستويين الخطابي والسردي في مستوى واحد هو المستوى السطحي، بوصفه مقابلاً للمستوى الدلالي العميق، وهي فكرة على الرغم من شيوعها فأجدُ أنّ الاساس النظري لأعمال رائد مدرسة باريس تأباها، فعلى الرغم من تداخل المستويين فهُما مستويان اثنان متمايزان لا مستوى واحد[6].

تتألف كل حكاية من ثلاثة أزواج من المقولات، يؤلف كل زوج محوراً خاصاً، يمكن تمثيلها على النحو الآتي[7]:

1. محور الاتصال يتألف هذا المحور من الاتصال بين عاملين اثنين هما المرسل والمرسل اليه
2. محور الرغبة: يتألف هذا المحور، كسابقه، من عاملين تقوم بينهما رغبة بالاتصال او الانفصال، هما عاملا الذات والموضوع
3. محور الصراع: من أجل أن تتمّ رغبة الذات بموضوعها، اتصالا او انفصالا، ينبغي أن يتوفر، في كل حكاية، عاملُ المساعد الذي يساعد الذات في تحقيق رغبتها، وعامل المعيق الذي يقف ضد تحقيق رغبة الذات.

تتألف الخطاطة العاملية على وفق هذا التصور من المقولات العاملية الستة الآتية:

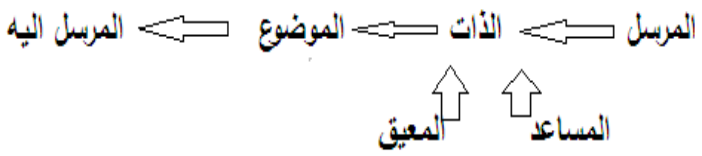

إنّ هذه الخطاطة تمثّل المقولات الكلية التي تنتمي لها مختلف مظاهر الممثّلين في البنية الخطابية السطحية للنص، وفي رواية الهؤلاء نعثر على خطاطتين اثنتين اساسية وثانوية

عرضية؛ تتمثل الرئيسية بالخطاطة السردية وهي تتصل بأحداث الرواية وشخوصها وكائناتها، وتتمثل الثانوية بالخطاطة ما وراء السردية، ذلك أن رواية الهؤلاء تنطوي على مواقف ما وراء سردية مهمة على الرغم من ندرتها، بدءاً من عنوانها الثانوي (رواية لا اساس لها من الصحة)، وتُعَدّ كائناته عواملَ أخرى غير العوامل الخاصة بالرواية، غير أن ما يميّز هذه العوامل أنها ذات طابع تحويلي للقيم في عالم الرواية.

فالخطاطة ما وراء السردية مسؤولة عن إعادة قراءة الخطاطة الأولى قراءة تأويلية رمزية، فضلاً عن كونها تؤكد الطابع الساخر للرواية كلها.

يتبيّن لنا، في الخطاطة الرئيسية الأولى، أن المرسل في الرواية هو الكتاب العلمي الذي يمثل القيمة العلمية المتعلقة باختلاف دوران الارض مع حركة عقارب الساعة، ويشحن هذا المرسل بوصفه مبتدأ القيم ومنتهاها الذات الفاعلة (الراوي–الشخصية) بالرغبة بامتلاك موضوع يتمثل بتعديل حركة عقارب الساعة لتصبح موافقة لدوران الأرض :

"بدأ كل ذلك عندما كنت أقرأ كتابا بلغة ديار"أيبوط" المجيدة، التي كان من نصيبي ان اكون احد رعاياها.. ولو لم اكن اقرأ لما حدث شيء على الاطلاق..

قرأت أن دوران الارض حول نفسها يحدث في اتجاه مضادّ لدوران عقارب الساعة!!.. دهشت جداً وقلت: لماذا تدور الارض ضدّ الساعة وليس معها؟!.. وظلّ هذا السؤال يشغلني فترة طويلة، اذ خطر لي أن هذا التضادّ فأل سيء سوف ينتهي حتماً بنهاية مريبة.. وأخذت أسأل نفسي عن المسئول عن هذا الوضع الخطير؟!"[8].

بهذا المستهلّ تفتتح الرواية برنامجها السردي، وهو ينطوي كما ذكرنا على ممثّلين اثنين ينتميان لمقولتين عاملتين هما مقولة المرسل اليه ممثّلة بالكتاب العلمي، ومقولة الذات ممثّلة بالراوي/الشخصية، كما ذكرنا آنفا.

غير أن هذا المستهلّ ينطوي أيضاً على المقولة العاملية الثالثة ويحددها، وهي مقولة الموضوع ممثّلاً بانطباق حركة عقارب الساعات على حركة دوران الارض: "وصار شغلي الشاغل هو البحث عن وسيلة لاصلاح الحال بحيث لا تخالف الارض في دورانها أي ساعة من ساعات بني البشر.."[9].

إذن حدّدت الرواية منذ مستهلّها محور الرغبة كاملاً تمثله مقولتا الذات والموضوع، وقبلهما حدّدت مقولة المرسل اليه العنصر الاول من عنصرَي محور التواصل، في

الخطاطة العاملية التي تقع من وراء حركة جميع الممثّلين من شخصيات وكيانات مادية وغيرها في المستوى الخطابي للرواية، وكشف الرواية منذ مستهلها عن محور الرغبة كاملاً، يجعل منها رواية تشويق أشبه ما يكون بالرواية البوليسية.

على انّ المقولة العاملية التي تقف موازية لمقولة المرسل في محور التواصل فهي تتألف من جمهور القراء في الدولة الأيبوطية المجيدة، ويتألف محور الصراع، الذي يستحوذ على مجمل المشهد السردي في الرواية، من عامل المساعد ممثّلا ببعض المثقفين، وعامل المعيق ممثّلا بالعسس ورجال الأمن وباختصار: اجهزة الدولة الأيبوطية الامنية كلها، وواضح عدم التكافؤ بين العاملين في هذه الخطاطة من حيث الممثّلين لهما، فبعض المثقفين وهم على خوف وتردّد، كما تصوّر الرواية، يقابل جيوش لا عدّ لها من المخبرين، وأجهزة تنصّت غير متوقّعة، ومراكز شرطة، ومخافر في جميع انحاء المعمورة الأيبوطية. وهو ما ينتج مفارقة ساخرة على محور الصراع، ونتيجة محسومة، غير ان ما يعوّض تراجُح كفتَيْ محور الصراع في الرواية، دخول الخطاطة العاملية ما وراء السردية، لتحويل القيم التي يريد إيصالها المرسل إلى المرسل اليه.

يمكن لنا هنا اختزال المقولات العاملية بالخطاطة التوضيحية الآتية:

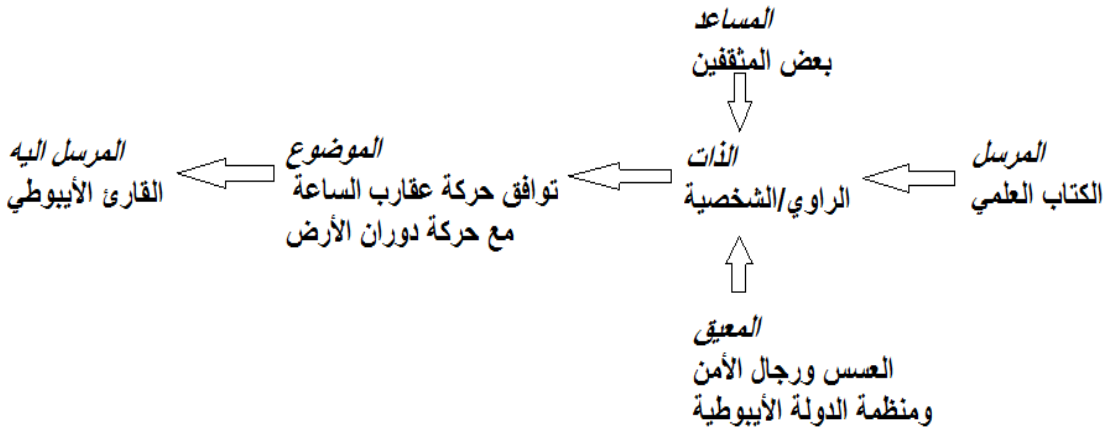

الخطاطة العاملية الرئيسية

إن هذه الخطاطة الرئيسية، لا تشكّل اهمية على المستوى الدلالي- المنطقي العميق، ما لم تتعاضد معها الخطاطة الثانوية ما وراء السردية، كما ذكرنا آنفاً، لذا من الواجب أن نبيّن، أيضاً، مكونات الخطاطة العاملية ما وراء السردية، ونبيّن، أيضاً، اهميتها ووظيفتها، فالخطاطة ما وراء السردية مسؤولة عن اعادة قراءة الخطاطة السردية الرئيسية، قراءةً تأويلية رمزية، كما سبق ان بيّنا.

وهي، أيضاً، خطاطة تحويلية للقيم السردية، فهي متعلقة بتقنية ما وراء السرد meta narrative أي؛ الحكي على الحكي، وهي تقنية ظهرت في مواضع محددة جداً، الا انها مهمة ودالة جداً.

ظهرت هذه التقنية في موضعين دالين؛ اولهما العنوان الثانوي: رواية لا اساس لها من الواقع، وهو يقف موازياً للعنوان الرئيس للرواية: الهؤلاء، والموضع الآخر: مقطع صغير تحت عنوان: "تنبيه قبل ان أعود إلى الحكاية الأصلية"[10]، ففي هذين العنوانين يبرز تدخُلُ المؤلف في توجيه القراءة، ويمثل هذا التدخل حكياً على الحكي، أي؛ ما وراء سرد يقوم بوظيفة محددة تتعلق ببناء خطاطة تحويلية للقيم السردية، ومن هاهنا تتكشف الخطاطة التحويلية للقيم التي سميناها الخطاطة ما وراء السردية.

تتألف هذه الخطاطة، كسابقتها، من المقولات العاملية الستة التي يخضع لها كلُّ عالم دلالي، ففي محور التواصل سيكون المرسل هذه المرة المؤلف نفسه، وان كان ينطق بلسان الراوي/الشخصية، يقول:

" ليكن معلوما ان كلا من صاحب القلم المشهور والاديب النصف معروف هما شخصيتان من اختراعي، ولا علاقة لهما بالواقع المعاش في ديارنا الايبوطية المظفرة.. كذلك الحال مع جميع الشخصيات التي قد يأتي ذكرها فيما بعد ..

وقد تعمدت ذكر هذه الحقيقة حتى لا يجتهد احد ذهنه في محاولة تخمين لا جدوى منها .. فهذه الرواية لم تقع هنا، لم تحدث الآن .. وانما حدثت احداثها ابان زمن غير مؤكد وفي بقاع غير معروفة .. لذا لزم التنويه ..

كذلك فان شخصية الراوي – الذي هو أنا – تخيلية غير موجودة."[11]

فالعنوان الثانوي (رواية لا اساس لها من الصحة)، وهذا المقطع ما وراء السردي الموسوم بـــ(تنبيه قبل ان أعود إلى الحكاية الأصلية) يشيران إلى ظهور المؤلف في العمل السردي بوصفه ممثِّلاً لمقولة المرسل في الخطاطة العاملية ما وراء السردية، فهو النقطة الاولى على محور التواصل ناقلاً ومحولاً القيم التي يريدها إلى المرسل اليه الذي يتحول من القارئ الايبوطي في الخطاطة العاملية الرئيسية إلى القارئ العربي في هذه الخطاطة؛ ذلك أن المؤلف قد كتب روايته إلى الشعب العربي. وسيتألف محور الرغبة، هنا، من مقولتين عامليتين تحويليتين هما القارئ بوصفه ذاتاً محفزَة ترغب بموضوع يتمثل بتغيير وجهة الدلالة من رواية عن مخالفة حركة عقارب الساعة لدوران الأرض إلى دلالة تتعلق

بالسير إلى الوراء في الحياة العربية مقارنة بحركة سير الامم الأخرى، ويحيط ذلك التحويل تفسير لرمزية الأسماء في الرواية؛ فالديجم هو اسم لكل حاكم عربي، وأيبوط اسم لأيّ بلد عربي، وكونهما مقلوب اسم المؤلف وأبيه، يعادل أيضاً حركة عقارب الساعات المعاكسة لحركة دوران الأرض.

وفي محور الصراع ستكون الغلبة واضحة لما يمثّل مقولة المساعد: امكان الدلالة التأويلية الرمزية، على انّ المعيق فيتمثل بالدلالة الظاهرة الحرفية، وهي ضعيفة لقوة القرائن والاشارات المنتشرة في الرواية بدءاً بعنوانيها الرئيس والفرعي إلى خاتمتها مروراً بمقاطعها السردية الموسومة بعنوانات دالة.

يمكن لنا وضع الخطاطة العاملية ما وراء السردية على النحو التوضيحيّ الآتي:

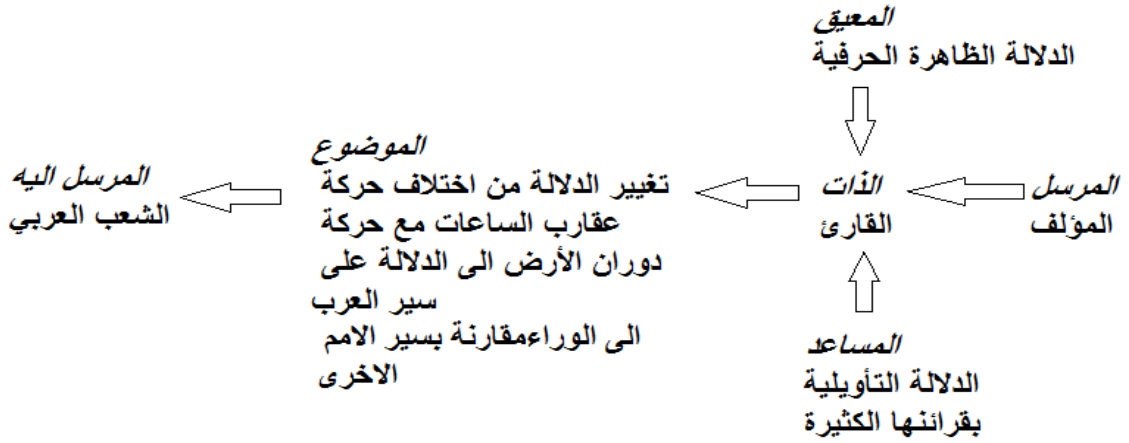

الخطاطة العاملية ما وراء السردية

5- الخطاطة السردية القانونية

إنّ اي برنامج سرديّ لا بدّ له، بدءاً، من خطاطة سردية قانونية canonical narrative schema وهي تبيّنُ لنا المراحلَ الأربعةَ التي تمرُّ بها الذاتُ معرَّضةً لاختباراتٍ ثلاثةٍ تكشفُ عن إمكانِ إنجازِها الموضوعَ المستهدف.

المرحلة الأولى: هي مرحلة الإيعاز؛ يوعز بها المرسل إلى الذات أن تقوم بمهمتها للاتصال بالموضوع المرغوب فيه أو الانفصال عنه، فان كان المرسل هو الذات نفسها، سنكون عندئذٍ أمام ايعاز ذاتيّ، فان كانا منفصلين مختلفين، سنكون أمام ايعاز موضوعيّ، وفي البرنامج الرئيس لرواية الهؤلاء نجد ان الايعاز موضوعيّ؛ ذلك انّ المرسل يتمثل بالكتاب العلميّ من حيث هو محفِّز ومرغِّب للذات بالاتصال بموضوعها (المتمثل بتغيير

حركة الساعات لتطابق حركة دوران الارض)، على أنّ الذات تتمثل بالراوي/ الشخصية. انّ ارادة الايعاز، هنا، خارجية من المرسل وهو ايعاز ترخيصي؛ أي ان الذات تقتنع باهمية الفعل ووجوبه على نحو ذاتي مع كون المحفز خارجيّاً.

المرحلة الثانية: هي مرحلة الكفاءة اذ تمرّ الذات هنا بالاختبار التأهيلي qualitative test من اجل ان تتحلى بالقدرة اللازمة للقيام بانجاز الفعل.

تتشكّل كفاءة الذات من معرفة الفعل المرغوب بانجازه اولاً ويلحظ على الذات، هنا، معرفة اجمالية ذات طابع غير يقيني، وحدسية للقيام بالفعل، فالذات لا تسوّغ الفعل الا بالشعور الحدسي: "اذ خطر لي ان هذا التضاد فأل سيء سوف ينتهي حتما بنهاية مريبة.."[12]، وكذلك عدم تيّقن من المعلومة المحفِّزَةِ للفعل اذ يبادر بعد تشكيكٍ إلى زيارة مؤلف الكتاب وكانت زيارة فاشلة هربت الذات ممثلة بالراوي/ الشخصية[13]. وتتشكّل الكفاءة أيضاً من ارادة الفعل، وهي متحققة بالذات تماما في ولعها بانجاز الفعل منذ ان حفّزها المرسل (الكتاب العلمي).

فاذا كانت المعرفة بهذه الصورة والارادة كذلك، بقيت الصفة الثالثة المتعلقة بقدرة الفعل اذ تكشف الذات عن ان الامكان في مطابقة الحركتين(الارض والساعات) غير ممكنة من جهة الارض الا انها ممكنة من جهة الساعات، والصفة الرابعة الاخيرة تتعلق بوجوب الفعل اذ ان الذات مقتنعة، تماما، بوجوب القيام بفعلها لتعديل المسار الخاطئ.

ان هذه الصفات الاربعة هي الجهات الكيفية modalities التي تتصف بها الذات في مرحلة الكفاءة لاتمام الفعل في المرحلة اللاحقة: الانجاز، وهي تتطلب برنامجاً كيفياً خاصّاً تستعين به الذات لتتأهل به للانتقال إلى الانجاز، يدعى البرنامج الاستعمالي، يتضمن، أيضاً المراحل الاربعة للبرنامج الرئيس من ايعاز وكفاءة وانجاز وتقويم[14]. ويمكن للمخطط الآتي ان يبيّن لنا موقع البرنامج الاستعمالي في البرنامج الرئيس:

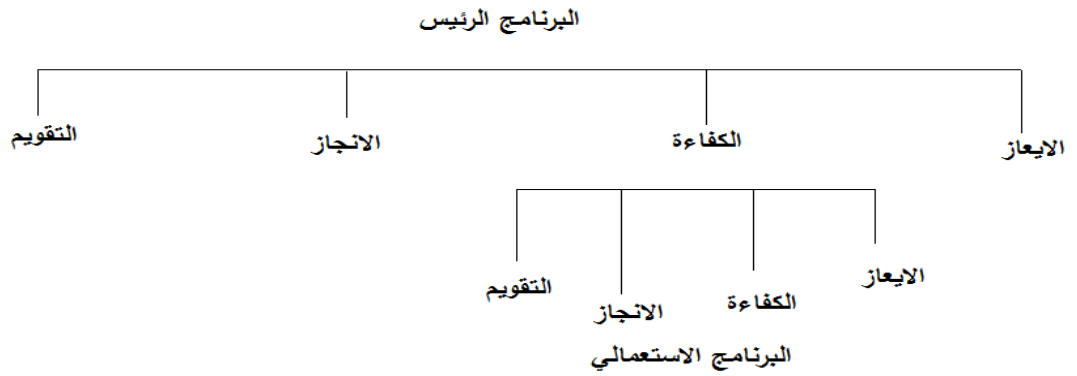

يتمثل البرنامج السردي الاستعمالي برغبة الذات بارادتها الذاتية ممثلة بالراوي/الشخصية باللقاء بمسؤول الاذاعة والتلفزيون لاقناعه بوجوب تنبيه الناس وخلق رأي عام بينهم لتغيير حركة عقارب الساعات لتوافق حركة دوران الارض: "جلست اشعل لفافة تبغ – فهكذا يفكر ابطال افلامنا – متأملا الدخان الكثيف الذي لم يكن يتصاعد إلى سقف الغرفة وانما كان يتبعثر خارجا من النافذة.. وكررت ذلك إلى ان وانتني الفكرة النيرة التي ادت إلى تعرضي للاهانات والافتراءات وإلى افتراقي عن حبيبتي الخمرية دافئة الحضن ..

ذهبت إلى إلى مبنى اذاعة وتلفزيون ايبوط، حيث وجدت عددا من "الهؤلاء" يحرسون المدخل، استوقفني احدهم وسألني عن هدفي فلم افصح وقلت له:

- اريد مقابلة المدير ..

زاد احترامه لي وسألني في ادب مبالغ:

- أي مدير؟؟
- مدير الاذاعة والتلفزيون
- لكل منهما مدير ايها السيد
- اريد مقابلتهما معا ..

امسك قلمه ليكتب في دفتر طويل عريض امامه اسمي ورقم هويتي .. فدهشت وسألته عن جدوى هذه الاجراءات؟! فهمس وعيناه تغمزان في خطورة:

- احتياطات أمن ضرورية، تعرف ان لنا اعداء ..

ثم عاد يسألني عن هدفي من الزيارة، فعرضت عليه المشكلة في تبسيط شديد يليق بالمامه العلمي الضئيل، إلى ان قلت في هدوء شديد:

- أما عن تغيير دوران الارض فهذا محال، على الاقل في حدود المتاح لنا علميا الآن .. فيكون الحل الوحيد والذي لا يوجد غيره هو دعوة الناس اعلاميا إلى المشاركة في مناقشة المشكلة وحثهم على المساهمة بافكارهم كي لا تدور ساعاتهم ضد الدوران الطبيعي للارض، وبذلك نقتل الفأل السيء"[15].

انّ هذا المقطع يبيّن المراحل كاملة للخطاطة السردية القانونية المتعلقة بالبرنامج السردي الاستعمالي، فالارادة المتعلقة بالايعاز ذاتية، والكفاءة بينة بمراحلها الاربعة من وجوب فعل اللقاء وارادته والقدرة عليه فضلا عن معرفته متضَمَّنَة في المقطع، كما ان

الذات قامت فعلا بفعل الانجاز الا انها فشلت، واخيراً فان الذات بوصفها، أيضاً، مرسلا موعزاً، قامت بتقويم الفعل في المقطع التالي لهذا المقطع وحكمت على البرنامج بالفشل التام.

اذن مرّت الذات في هذا البرنامج الاستعمالي بالاختبارات الثلاثة: الاختبار التأهيلي الذي مكنّها من المرور من حالة كون البرنامج مجهَّزاً actualized إلى حالته الفعلية realised وانتهى البرنامج بالفشل كما ذكرنا، وهو ما أدّى إلى تراجع الذات عن اداء مهمتها والاتصال بموضوعها الرئيس، أي؛ فشل البرنامج الرئيس برمته أيضاً.

المرحلة الثالثة: هي مرحلة الانجاز اذ تنتقل الذات في برنامجها الرئيس من مرحلة الكفاءة بعد اجتياز الاختبار التأهيلي، وكما وجدنا سابقا ان الذات فشلت وتراجعت عن انجاز مهمتها، ولم تمرّ بالاختبار الحاسم او انها فشلت فيه بتراجعها عن اقتحامه.

المرحلة الرابعة: هي مرحلة التقويم اذ تمرّ الذات هنا باختبار تمجيدي تقويمي من لدن المرسل، ومن البيّن انّ الحقيقة العلمية، هنا، كشفت عن تراجع القيم العلمية في النقاش والاقناع والحجاج، مقابل طغيان قيم التسلط والخوف والترهيب.

هذه هي المراحل الرئيسة التي مرّت بها الذات للقيام ببرنامجها السردي الرئيس.

6- البرنامج السردي

هنالك في كل سرد برنامج سردي (ب.س) نوعان من العناصر هما:

1- الذات؛ وهي على نمطين أيضاً:

- ذات الفعل: هي الذات المسؤولة عن انجاز الفعل المتعلق باتصال ذات الحالة بموضوعها أو انفصالها عنه.
- ذات الحالة: هي الذات التي تتصل بالموضوع او تنفصل عنه[16].

وقد يكون الملفوظ السردي مؤلفا من ذات واحدة تقوم بوظيفة الفعل والحالة معا فنكون عندئذٍ امام ملفوظ سردي انعكاسي او لازم (قياسا بالفعل اللازم في الجملة النحوية). وقد تكون الذاتان مختلفتين، فنكون امام ملفوظ سردي متعدٍ (قياسا بالفعل المتعدي أيضاً)[17].

2- الموضوع؛ هو موضوع القيمة الذي يكون هدفاً ترغب به الذات[18].

وكما تبيّنَ لنا، آنفاً، أنّ لرواية الهؤلاء خطاطتين عامليتين؛ خطاطة سردية، وأخرى ما وراء سردية، كذلك ثمة برنامجان سرديان؛ برنامج سردي رئيس يتعلق بالخطاطة

السردية، ويتصل به برنامج استعمالي واحد، وبرنامج ما وراء سردي واحد يتعلق بالخطاطة ما وراء السردية، ولا يرتبط به أيّ برنامج استعمالي؛ ذلك أنه برنامج محدود ذو وظيفة محددة ترتبط بتحويل القيم السردية الحرفية إلى قيم ما وراء سردية تأويلية.

يتألف البرنامج السردي الرئيس من (ذ1) وهي الذات المحَفِّزة للفعل، وهي هنا الذات المرسلة ممثِّلة بالكتاب العلمي، و(ذ2) وهي ذات الحالة ممثِّلة، هنا، بالراوي/الشخصية، و(مو) هو الموضوع المتمثّل بتوافق حركة عقارب الساعات مع حركة دوران الأرض، والعلاقة بين (ذ2) و(مو) هي علاقة انفصال (U) ترغب الذات بتحويل العلاقة إلى اتصال (∩).

يمكن صياغة البرنامج السردي الرئيسي بالمعادلة الآتية:

مو U ذ٢ ← ذ١ ⟸ ذ١ ← ذ٢ ∩ مو

غير انّ البرنامج يفشل في تحقيق الغاية؛ ذلك انّ الذات لم تتمكن من الاتصال بموضوعها، فينقلب البرنامج الرئيس إلى برنامج مضادّ تقوم به الذات المضادّة يكون موضوعها، هذه المرة الذات ممثَّلة بالراوي/الشخصية.

ان فشل البرنامج السردي الاستعمالي، كما ذكرنا آنفاً، دليل على عدم كفاءة الذات على انجاز البرنامج الرئيس، وهو يحمل في طياته نقداً جوهرياً للصورة النمطية للنخب المثقفة في البلدان العربية، وعجزها عن تقديم البرامج المؤهلة لإحداث التحولات في البنية الاجتماعية والسياسية في بلدانهم، وان هذا الفشل مسؤول عن توليد المفارقة السردية التي تقوم عليها رواية الهؤلاء.

تتأتّى المفارقة السردية narrative irony من التباين الحادّ بين الموضوع القيمي الرئيس بحجمه الكبير(مطابقة حركتي عقارب الساعة ودوران الأرض)، والموضوع الكيفي modal object الخاص بالبرنامج الاستعمالي (مقابلة مدير الاذاعة والتلفزيون) المتعلق بكفاءة الذات، وهو موضوع ذو حجم صغير جداً، لذا يتولد مقابل الفشل المحيق بالبرنامج الاستعمالي، وتهرُّب الذات من انجاز البرنامج الرئيس، برنامج مضاد تصبح الذات فيه موضوعا لرغبة ذات مضادة، ولا سيما ان هذه الذات مؤهلة تأهيلاً جيداً لانجاز موضوع رغبتها، وهو ما يعزز المفارقة السردية أيضاً، ويجعل من الرواية رواية مفارقات سردية ويدخلها في الادب الساخر.

يبدأ البرنامج السردي المضادّ للذات المضادّة في اللحظة التي يفشل بها البرنامج السردي للذات، وهو برنامج مضادّ يستغرق معظم فصول الرواية، اذ تبدأ الذات المضادّة التي تنتمي لمقولة المعيق في الخطاطة العاملية باتخاذ الذات موضوعاً لها، وهي ذات مضادة مجهزة بكفاءة كبيرة تمكنها من انجاز الموضوع والاتصال به، من رقابة مشددة على الذات: الراوي/الشخصية، ومتابعته بصورة دقيقة، مستعملة أدق الاجهزة المتطورة تكنولوجياً، فضلا عن جيش من العسس والمخبرين، ومخافر الشرطة الاربعين المنتشرة على طول البلاد وعرضها كما تصور فصول الرواية.

ان هذا البرنامج المضادّ يتألف من ذات مرسلة ممثلة بأمن الدولة التي تسعى إلى الحفاظ على استقرار وديمومة حكومة الديجم (رأس السلطة)، وهي تحفِّز الذات المضادّة ممثلة بمسؤول الامن الذي يرغب بموضوع يتمثل بالتأكد من موقف الراوي/الشخصية من حكومة الديجم، وسلوكه ازاء أمن الدولة الايبوطية.

اذن تكون الذاتان ذات الفعل وذات الحالة هنا، ذاتا واحدة ممثلة بالجهاز الامني للدولة الايبوطية، فالملفوظ السردي لهذا البرنامج عبارة عن ملفوظ لازم انعكاسي وليس متعدياً، كما هي الحال مع الملفوظ السردي للبرنامج السردي للذات. ودلالة ذلك بنيوية في الرواية أيضاً؛ ذلك ان الذات المضادة تشكّل برنامجها السردي المضادّ بإرادة ذاتية ولا تحتاج إلى تحفيز خارجي، فالمواطن في الدولة الايبوطية، ومن هي على شاكلتها، متهم أمنياً حتى تثبت براءته، والذات المضادّة تتصرف على اساس هذا، وترغب بالاتصال بموضوعها وملاحقته، على نحو رغبة ذاتية لا تحتاج إلى محفّز خارجي.

ان الذات المضادّة في مسعاها للاتصال بموضوعها تستعين، كما ذكرنا، بإمكانات لا حصر لها، تساعدها في الوصول إلى مسعاها، مع الفقير الشديد للذات، كما مرّ بنا سابقاً، لمحاولة بلوغ موضوعها. وهو أمر ذو دلالة بنيوية في الرواية: انه يعمّق الاحساس بالمفارقة السردية أيضاً.

7- البرنامج ما وراء السردي

يمكن لنا، هنا، ادخال هذا المفهوم الجديد للكشف عن برنامج تحويلي للقيم السردية، بحيث يطلُّ القارئ والكاتب معاً في لعبة السرد المقنَّعة. فالخطاطة السردية ما وراء السردية التي كشفنا عنها، آنفاً، تلزمنا بوضع هذا البرنامج ما وراء السردي ليتمَّ تحويل القيم السردية.

ان المرسل، ممثلاً بالكاتب على لسان الراوي/الشخصية في هذا البرنامج، هو ذات الفعل، على ان ذات الحالة هي ذات القارئ التي ترغب بالاتصال بموضوعها القيمي. والبرنامج، هنا، ذو طبيعة متعدية، ما دامت ذات الفعل وذات الحالة ذاتين مختلفتين، والمخطط الآتي يوضح البرنامج:

ذف (ذح ∪ مو ⟸ ذح ∩ مو)

تمثّل ذف، في هذا البرنامج ما وراء السردي، ذات الفعل التي يجسّدها الكاتب نفسه، وتمثّل ذح ذات الحالة التي يجسّدها القارئ لتتغير بوساطة ذات الفعل حالة الانفصال بين ذات الحالة وموضوعها (مو) إلى حالة اتصال، أي يحصل القارئ على قراءة اختلاف حركة عقارب الساعة في الدولة الايبوطية مع حركة دوران الارض، على انها حركة تخلُّف الامم العربية مقارنة بحركة سير الامم والتأريخ.

ان البرنامج ما وراء السردي ينجح تماما؛ ذلك ان الذات، هنا، تمرُّ بالاختبارات الثلاثة: التأهيلي والحاسم والتمجيدي، وتنتهي إلى نجاح الذات في انجاز هدفها. فذات القارئ تستطيع تفسير المقلوبات الثلاثة في الرواية: مقلوب اسم الكاتب، ومقلوب اسم ابيه، ومقلوب حركة الارض. ونجاحها في هذا التفسير يعني اجتيازها للاختبار التأهيلي، وانطلاقها لانجاز برنامجها في التفسير الرئيس، على ان المرسل حامل القيم ومنتهاها يشترك مع المرسل اليه، هنا، لتقويم الفعل ما وراء السردي في اختبار تمجيدي أخير: قراءة الرواية كلها بوصفها مشروعاً تامّاً عن المفارقات السردية التي تعادل مشروعَ حياة الشعوب العربية بوصفه مفارقاتٍ حياتيّةً ساخرة.

8- المربع التصديقي

يتألف المربع التصديقي من اربعة حدود terms واربعة محاورaxes، وهو شبيه بالمربع السيميائي في المستوى المنطقي الدلالي، باستثناء ان قيم الحدود، هنا، تتألف من الكينونة being، والتجلّي seeing، ونقيضيهما اللا كينونة no-being، واللا تجلّي -no seeing، اما المحاور فهي تتشكل من العلاقات القائمة بين الحدود من جهة، وزمن الحالة من جهة اخرى.

اذن يمثل هذا المربع الاحوال التي تمرّ بها الحالة السردية للبرنامج السردي وهي تتنقل من لحظة زمنية إلى اخرى في عين الراصد، فالذات الراصدة والزمن عاملان مهمان يدخلان في بنية المربع وان لم يظهرا في خطاطته المعروفة[19]:

يبيّن المربع التصديقي من وجهة نظر الذات الراصدة ممثلة بالقارئ التحولات التي تمرّ بها ذات الحالة ممثلة بالراوي الشخصية وهي تحاول الاتصال بموضوعها، وكيف تصبح موضوعا قيميا للذات المضادّة في ازمان سردية اربعة متعاقبة، على النحو الآتي:

- زمن1: الراوي/الشخصية يتجلى موافقاً لكينونته (المثقف الداعي للتغيير) –محور الصدق.
- زمن2: الراوي/الشخصية يتجلى فاقداً لكينونته (الخائف المذعور) – محور السرّ.
- زمن3: الراوي/الشخصية يتلاشى (رقم في طابور المعتقلين) – محور الكذب.
- زمن4: الراوي الشخصية عبارة عن كينونة مختفية (شاهدة قبر في صحراء الاعتقال) – محور الوهم.

9 – الخاتمة

أظهر البحث امكان اجراء التحليل السيميائي لمدرسة باريس السيميائية في المستوى السردي بوصفه مستوى متوسطاً بين مستويين: مستوى التجلّي اللساني للملفوظات السردية وهو مستوى خطابي قابل للتغيُّر والتبدُّل من مادة لسانية إلى أخرى، مع بقاء المستوى السردي ثابتاً من جهة، ومستوى الدلالة المنطقية العميقة التي يعبّر عنها النص،

وهي مما لا يتغيّر ما دام المستوى السردي ثابتاً، من جهة ثانية. وهو ما يعزّز رأينا بالأولية المنطقية لهذا المستوى السردي وحاكميته على المستوين الآخرين.

وبما يتصل بالرواية فقد كشف البحث طابع الرواية السخري القائم على المفارقات السردية، وهي ليست بالمفارقات الظاهرة التي تطفو على سطح النص اللغوي، وانما هي مفارقات مبنيّة داخليّاً.

فالتباين القائم بين البرنامج السردي الرئيس من جهة والبرنامج السردي للذات المضادّة من جهة ثانية ولّد احساساً بالمفارقة، فضلاً عن ضآلة المساعد في البرنامج الرئيس بالقياس إلى عِظَمِ المعيق، أيضاً، عزَّزَ الشعور بالمفارقة السردية.

ولعلّ ما يعزّز المفارقة السردية، أيضاً، في روايتنا، هو وظيفة ما وراء السرد التحويلية، فهي وظيفة حوّلت منظومة القيم في البرنامج السردي الرئيس، ليطُلَّ منها القارئ عاملاً مهماً من عوامل الخطاطة ما وراء السردية، ومقوِّماً أصيلاً ان لم يكن شاهد عيان.

الهوامش

(1) مجيد طوبيا: الهؤلاء، الجمهورية العراقية، وزارة الإعلام 1976.

(2) نصر الدين بن غنيسة: فصول في السيميائيات، عالم الكتب الحديث، اربد، الاردن، 2011، انظر ص19-ص20.

(3) الجيرداس جوليان غريماس: في المعنى، ت. نجيب غزاوي،مطبعة الحداد، اللاذقية، 2000، ص12.

(4) نفسه: انظر ص105.

(5) نفسه: ص115.

(6) نفسه: انظر ص12، وكذلك انظر ص 43.

(7) حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الادبي، المركز الثقافي العربي، 2000، انظر ص 33-ص36.

(8) مجيد طوبيا: الهؤلاء، ص7.

(9) نفسه:ص8.

(10) نفسه: ص13.

(11) نفسه: ص13.

(12) نفسه: ص7.

(13) نفسه: انظر ص21-ص24.

(14) نصر الدين بن غنيسة: فصول في السيميائيات، انظر ص47.

(15) نفسه: ص14-ص15.

(16) كورتيس: مدخل الى السيميائية السردية والخطابية، ت: د. جمال خضري، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف،2007، بيروت /الجزائر،انظر(المقدمة بقلم غريماس). ص27- ص28.

(17) نفسه: انظرص113.

(18) Bronwen Martin and Felizitas Ringham: *Dictionary of semiotics*, Cassel, London, 2000, see p.79.

(19) Louis Hebert: *Tools for text and image analysis, An introduction to applied semiotics*, trans. By Julie Tabler, editor: Texto, 2006, see p.29.

وكذلك: غريماس: في المعنى، انظر ص 111، وكذلك: جوزف كورتيس: سيميائية اللغة، ت: جمال حضري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2010، انظر ص96.

مصادر البحث ومراجعه

- Bronwen Martin and Felizitas Ringham: Dictionary of semiotics, Cassel, London, 2000.
- Louis Hebert: Tools for text and image analysis, An introduction to applied semiotics, trans. By Julie Tabler, editor: Texto, 2006.
- جوزف كورتيس: سيميائية اللغة، ت: جمال حضري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2010.
- الجيرداس جوليان غريماس: في المعنى، ت. نجيب غزاوي،مطبعة الحداد، اللاذقية، 2000.
- حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الادبي، المركز الثقافي العربي، 2000.
- كورتيس: مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، ت: د. جمال خضري، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف،2007، بيروت /الجزائر.
- مجيد طوبيا: الهؤلاء، الجمهورية العراقية، وزارة الإعلام 1976.
- نصر الدين بن غنيسة: فصول في السيميائيات، عالم الكتب الحديث، اربد، الاردن، 2011.

The Narrative Program in Majeed Toobea'Novel: The "Those" Semiotic study

Ass. Prof. Yousif M. J. Eskandar
The Arabic Language Dept.
College of Arts, Baghdad Univ.

Abstract

This study approaches Majeed Tubya's novel: The "Those" This novel is of narrative irony.

The study tried to analyses this novel from perspective of narratological semiotics, specially the narrative level in the semiotic analysis of Paris school.